قصة

مدينة كاووش!

عبد الستار ناصر

لم تكن غير قاعة حمراء، بساط من الدم يمتدّ من الباب نحو ثلاث نهايات: واحدة عند الممرّ، وثانية عند خيوط العنكبوت، وثالثة هناك حيث الجثّة التي رسمها وقد تدلّت ساقها اليسرى فوق الجمهور.

أحمر كلّ شيء، في تلك المدينة المنسيّة: أرضها، سقوفها، جدرانها. كذلك حارسها الوحيد: بدلة حمراء بأزرار حمر وقميص أحمر ورباط عنق يسيل كما الرّمّان ينتهي بحزام أحمر وحذاء على شكل كرز عتيق.

عند الباب العريض، عباءات حمر، ينبغي استئجارها بدينار واحد، لئلاّ تخسر المدينة هيبة الدم المُراق في الثغور والشّعاب والمصابيح الحمر. لا يحقّ لك الكلام خلال زيارتك المدينة. انظرْ هذا الشَّبَح المخنوق تحت سيقان النِّساء. حدّقْ إلى ذلك الشّاعر يقرأ قصائده وهو يقطع رسغه بالسّكين. هنا بقرةٌ تسرح في شارع مقفل، هناك جسر مقطوع ورجال تقطع النّهر على شجر مذبوح. عمارات مبتورة، أطفال يتناثرون شمالاً وغرباً. في مدينة كاووش لا يحقّ لك الكلام؛ هناك مَنْ يتكلّم نيابة عنك، مَنْ يحلم نيابة عنك. وإذا سقطتْ على جبينكَ أو على يديك بعضُ نقاط من الدم، لا تجزعْ؛ فعند خروجك من سفح المدينة يمكنك التطهُّر بالذكرى ومسح الجريمة بماء الشّاي السّاخن. واحذرْ أنْ تمضي إلى ذاك المكان أكثر من مرّة واحدة؛ تلك مدينة يجب الحفاظ على أسرارها، وزيارة واحدة تكفي؛ وإذا ما تكرّرت الرّغبة في المضيّ إلى هناك، تمتّع بكوابيسها وحدك، ولا تطرق باب القاعة مهما كلّف الأمر!

* * *

انصرم الشّتاء، وانقطع المطر. مدينة كاووش لا يناسبها الصّيف، ربّما يسيل الأحمر إذا انقطعت الكهرباء. وبرغم الخوف من زلزال قد يأتي على حين غفلة، بقيت أركانُ المدينة تستقبل صعاليكَ الشّعر (موديل ٩٣) وتجّارَ الفنّ وبضعةَ أغبياء يطلقون على المدينة أسماء غريبة: أيّام الاثنين يسمُّونها واحةَ الحلاّقين، وأيّام الجمعة «مقهانا»، وعند المساء يحتسون الخمرة لصقَ «سلفادور دالي» وهو يقطع الوقتَ بالسِّكّين!

تدخينُ السّجائر ممنوع، ذلك أنَّ الدخان سيأخذ بعضاً من سحر المدينة ويحيلها إلى فم عجوز. وحده الحارس مَنْ يملك هذا الحقّ؛ فهو الّذي سوف يخسر بعض الغموض. دخان السيجارة يعطي ـ في العالم كلّه ـ فكرة أنَّ الأشياء لا تتغيَّر: الكرسي مصنوعٌ للجلوس، الفمُ للتّدخين، النّهر للسَّمَك، النّساءُ للحبّ، الجوعُ للأذكياء.

هنا يتدخّل صديقُهُ الشّاعرُ ليقول: «كُفَّ عن التّدخين يا كاووش، إنَّ أعظم الأسرار هي تلك التي يموت أصحابها». لكنّ الدخان يتطاير لم يزل، في بحرِ مساحةٍ لا تزيد على ثلاثين متراً هو طول المدينة، وأمّا اعوجاجها فهو لغزها منذ أوّل حجر فيها؛ فيمكنكَ ـ مثلاً ـ رميُ حجارة على زائر مزعج، ويمكنك ربّما ـ بقليل من الشّجاعة ـ أن تبوس امرأة على عَجَل.

دم في العروق، أو ما يشبه الموج، يصعد في جسد الشّاعر:

ـ ومَنْ قال إنَّ للخالق الحقَّ في قتل مخلوقاته؟!

* * *

في التّاسعة مساء، كان أهل المدينة يتسلّلون منها إلى البارات البعيدة.. هناك حيث يحتسي الرّأسُ ما يشتهي من خِدَع صغيرة. لم يعد في القاعة غيرُ الشّاعر ينظرُ إلى «لحم يتكدّس في صندوق القمامة». وفي الجانب الثاني، أو على وجه الدِّقّة قرب العرش الّذي جلس عليه السَّيِّد «كاووش»، كان سلفادور دالي لايزال يقطع الوقت بالسّكّين وهو يلحس شاربه على مشارف حفنة من أفخاذ «ماهود أحمد»(*) الّذي شارك في كرنفال المدينة بواحد من أحلامه المحرَّمَة.

الآن، لا أحد في المدينة. فلقد غادرها اعوجاج المدينة غريبٌ ومضحك. وربّما لهذا السبب اختارها كاووش وراح يرسم فيها أوّلَ مشروع للفوضى والجنون. نظيف هذا المكان ومخدّر بالصّمت أيضاً. راح كاووش يفتّش عن شبر يطفئ فيه جمرة سيجارته. صديقه الشّاعر كان يدري أنَّ كاووش سيحتفظ بالنّار والدخان بين أصابعه، فاقترب منه وقال:

ـ أنتَ خرّبت المدينة بهذا الدخان، ألا يمكنكَ الصّبر على مجرَّد سيجارة؟

أجاب كاووش:

ـ إنَّها مدينتي أنا، وأنا وحدي مَنْ يملكُ الحقّ في حرقها أو إغراقها أو ما شئت أن أصنع فيها.

الخالقُ والشّاعرُ، يقطعان الطّريق صوب اللّيل، باتّجاه بارٍ رخيص ربّما، إذْ لا أحد منهما يملك ثمن تلك المتع الأرضيّة النّاعمة. لم يستطع الشّاعر الصّبر، كان عليه ـ منذ نصف ساعة ـ أن يقول:

ـ ماذا كسبتَ من هذه المدينة يا كاووش؟ لاشكَّ أنَّ ثمن «الأحمر» الذي أغرقتَ به الشّوارعَ والممرّاتِ يزيد عشر مرّات عمّا تملكه في عام واحد.

راح يدخّن. لم يلتفت إلى كلام صاحبه؛ فهو يدري أنَّ المستقبل إنّما هو شيء آخر غير ما نرى اليوم، وكان عليه أن ينتظر بضع سنوات حتّى يفهم هذا الشّاعر كيف يُبنىٰ هذا النّوع من المدن الخرافيّة العنيدة.

في البار كان عليهما بيعُ خاتم فضّيّ ليشربا. لعلَّ أغرب ما جرى في تلك السّاعة، هو أنَّ صاحب البار لم يأخذ الخاتم، بل قدّم الشّراب مجّاناً في صحّة أجمل المدن التي رأى.. ولم يقل صاحب البار سوى عشرين كلمة:

ـ عندما كنتُ في عمرك يا كاووش، كنتُ أحلم في رسم مدينة كهذه، وها أنتَ أوّل من حقّق ذاك الحلمَ الطّافر القديم!

التفت كاووش إلى صديقه الشّاعر، وايقنَ ـ مرّة ثانية ـ أنَّ المستقبل إنّما هو شيء آخر غير ما نراه اليوم... وراحا معاً يحتسيان فكرة حلم جديد مازال على قيد الطّفولة والجنون. ولا يدري كاووش ـ حتّى اليوم ـ من الذي راح يردّد خلفهما بصوت سكران:

ـ يا كاووش، يا كاووش، ألا تدري أنَّ الأشجار ذبلت، لأنَّك لم ترسمها؟؟(**)

مدينة بلا بشر، غادرها النّهارُ والشّعراءُ والجميلاتُ والمطر، ولم يبق فيها سوى كاووش يفتّش بين اللّيل والرّعد والغيوم عن كمّيّة خساراته... ومع ذلك فقد استطاع أن يبتسم!

بغداد

(*) ماهود أحمد: فنّان عراقي مهمّ.

(**) السطر هكذا، مقطع من قصيدة للشّاعر حميد قاسم.

٤ قصائد

فاروق يوسف

١ ـ الملكة

من عرشها تهبط الآن
ـ سمّيتني ملكهْ
لفظةٌ ليس إلاّ، أرىٰ أنّنا نتحرّك مبتعدين
تلالٌ، قرىً، وجيوش تهيّئ أسلحة القتلِ
ما بيننا الموت يحدث
هل تقع المعركهْ؟
ونحن اكتشفنا الحرير الّذي غلّف الرّوح
نحن اهتدينا إلى بقعةٍ
سوف تخفي مسرّاتنا
رجلاً يلتقي وسط أحزانه امرأةً منهكهْ
سوف أعلن أنّي مضيتْ
أنَّ لي عاشقاً
مدَّ أهدابه كالبساط
وكانت أناشيده لي كبيتْ
قبل أن تسقط المملكهْ

٢ ـ الطّائرة

ما الّذي تبحث عنه الطّائرهْ؟
عشبةً خضراء
أم رفّ طيورٍ نافرهْ
كوخ فلاّح غفا
أم صخرة ملساء
فوق الماء
أمست مبحرهْ
ما الّذي تبحث عنه اليوم هذي الطّائرهْ
بعد أن أهدت لنا بالأمس موتاً
ما الّذي يجعلها تطلق نيراناً علينا
من سماء الآخرهْ؟

٣ ـ الموت

حين أطلّ الموت
بعينين مغلقتين
نظرتُ إليه فلم يتقدّمْ
وظلّ ينقّل عينيه بين الحضور
الّذين بكوا حين مرّ وسلّمْ
وكانوا حيارىٰ
أيمكن أن يطأ الموت داراً
ويتركها دون مأتمْ؟

٤ ـ الغريق

موجة عابسهْ
سلّمتني لأخرىٰ
دون أن ينتهي الموجُ
أو تظهر اليابسهْ

بغداد